لا يحول عنه ويكرر الكلام بدون نهاية عن مظالم طفولته الشقية ، وحتى في يفاعته المبكرة جداً كان مزاجه المندفع يجعله فجأة غاضباً ميالاً إلى العنف كما لو أن قرينا مجنونا مخيفا يكمن وراء سحنته البيزنطية . ولم يكن يستطيع احد أن يتنبأ قط بما سيفعله حتى في أفضل أوقاته .

كانت أجمل حقبة في حياته عندما كان يشعر وهو في سن العشرين بأنه يرزح تحت تهديد من غضب إلهي ويرفع اصبع التوبه بفضل نفوذ ماكاري العجوز وبفضل زوجته الناعمة انا ستاسيا . وكانت موسكو الجديدة قد اتسعت أمام ناظريه وارتفعت الصلبان فوق المنازل التي اعيد بناؤها وسكب الكهنة الماء المبارك على البيوت الجديدة . وقد تمت تغطية اسقف المنازل بالطين لكي لا تتمكن الشرارات الخارجة من المداخن ان تتسبب في حريق جديد ولم تعد موسكو الجديدة مدينة من الخشب كما كانت من قبل وأصبح لبعض نوافذها اطارات من حديد كما أصبح للقلة النادرة من بيوتها اساسات من حجر . ولكي يوقف دخول الهواء جهزوا الواجهات بالطحالب أو غطوها بلحاء أشجار البتولة ، ولكن هذا التصرف الأخير كان أكثر خطرا من الخشب لأن النار كان بامكانها ان تكمن هنا مدة طويلة في السر ثم ما تلبث أن تلتهب بسرعة بفعل الريح ، ولم يكن في موسكو مطافىء ، ولم يكن فيها من ماء الا ما يجلب من النهر ، والصلاة كانت وحدها هي مايحمي من الحريق .

ومع ذلك فان الشعب بعد المصائب التي ابتلاه بها الله استطاع ان يستعيد هدوءه وبدأ عهد جديد . ولكي يحسن القيصر الاحتفال بهذه المناسبة قرر بتأثير من نصائح أرداتشيف وسيلفستر أن يقوم بعمل يجعل منه أباً للشعب . ففي عام ١٥٥٠ بعد عيد ميلاده بقليل دعا لانعقاد مجلس يمثل النبلاء والشعب كان ينبغي أن ينعقد في الهواء الطلق في ميدان الكريملين الكبير . وهيأ لانعقاده بالصوم والصلاة وتناول القربان الذي سيساعده بدعم من جسد السيد المسيح ودمه على أن يعلن أمام رعاياه بدء سياسة جديدة في روسيا ، وتوجه الى المتروبوليت بهذه الكلمات :